عنوان المحاضرة الثالثة:

:أدب السير

عنوان المحاضرة الثالثة :أدب السير

أولًا– نشأة فن السيرة وتطوره :

يعد أدب السير فن أصيل في تراثنا العربي ، ولقد شهد فن السيرة تطورًا ملحوظًا مع تطور الأجناس الأدبية العربية، وفي هذا الصدد ستناول الحديث عن أدب السير ، ونتعرف على طبيعة العلاقة بين السير والتراجم.

1–تعريف السيرة :

ورد تداول مصطلح السيرة في كتب الأدب والأخبار، وسنتعرض لمفهومه اللغوي ثم الاصطلاحي:

أ–السيرة في اللغة :

ومن التعاريف اللغوية للسيرة في المعاجم اللغوية نذكر: «السِّيرة هي ضرب مِن السَيِّر، والسيّرة الكثير السَّيْر والسِّيرة : السُّنة والطَّريقَة والسِّيرة :الهيئة ».

ومنه فمعنى السيرة في المعاجم اللغوية العربية تحيل على الدلالات التالية : النوع والشكل أو الطريقة والهيئة.

ب–السيرة في الاصطلاح :

نحدد التعريف الاصطلاحي للسيرة في الاصطلاح الأدبي، فالسيرة «كتاب يروي حياة صاحبه (سيرة ذاتية) أو حياة غيره (سيرة غيرية) أما وقائع السيرة فقد تكون حقيقية أو تختلط فيها الحقيقة بالوهم ،والسيرة تختلف عن المذكرات والاعترافات ،وقد تكون أحيانًا مجرد إطار فني لحوادث خيالية وهمية بكليتها ».

ومنه فالسيرة هي رواية أحداث عن حياة شخص قد يكون الكاتب نفسه أو شخص آخر، وإضافة إلى ذلك فالسيرة « هي ذلك النوع الموقوف على رواية سيرة حياة لاتمتزج فيها الحكاية مع شخص الكاتب».

نقصد بالسيرة حكاية تتناول قصة حياة علم من الأعلام افي الفقه أو الأدب أو التاريخ...الخ ،ويُشترط في السيرة أن لاتكون هي حياة مؤلف السيرة نفسه.

2– تطور فن السيرة :

شهد فن السيرة تطورًا ملحوظًا في الأدب العربي القديم، وارتبطت السيرة في التراث الإسلامي بتدوين علم الأنساب،وفي مجال أدب السير تعد السيرة النبوية النموذج الأصيل« لفن السير،ولم تكتب في بدايتها ، ويعود تدوينها إلى القصاصين المسلمين ،الذين أرادوا الابتعاد عن القصة الجاهلية،وظلت السيرة النبوية موزعة في الكتب، حتى جاء ابن إسحاق وجمعها، وجاء بعده ابن هشام فهذب سيرة ابن إسحاق ولخصها،وأصبحت تنسب إليه، وتعهد سيرة ابن إسحاق بالتهذيب والاختصار وحذف بعض الأخبار والأشعار المنتحلة ، وصاغها صياغة سردية، وبأسلوب ذاتي وتخلى عن الإسناد».

شكلت السيرة النبوية أنموذجًا في كتابة السير العربية بعد تصحيح ابن هشام لها وتلخيصه وصياغته السردية المحكمة لها، وتعد السيرة النبوية «النص المؤسس في البناء من حيث الأحداث،وشكلت ثالث نمط لقصص جاهلي مع الطابع القصصي الإسلامي».

أحدث تدوين السيرة النبوية نقلة نوعية في التأليف في مجال السير ،وكان عمل لن هشام هام جدًا، وعادت بدايات ظهور السير العربية إلى السيرة النبوية ؛ فهي النص الأصيل والمؤسس لفن السير ، وارتبطت السيرة النبوية بابن هشام" مع أنَّه ليس هو أوَّل من دوَّنها

ومع ذلك كان له فضل في تهذيبها ، وحذف بعض الأخبار والأشعار المنتحلة، وصحح نسخة ابن إسحاق في السيرة النبوية من الخرافات والإسرائيليات، وتخلى عن الإسناد، وبذلك أعاد ابن هشام الصياغة السردية للسيرة النبوية بأسلوب جديد .

3- أنواع السيرة :

أجمعت المصادر الأدبية والنقدية على وجود هذه الأنواع من السير ، وهي :

3-1/-السيرة الذاتية الأدبية: Bigraphie

ظهرت السيرة الذاتية في بدايات أدب السير، وانتشرت أكثر من غيرها من السير.

أ-مفهومها:

إنَّ السيرة الذاتية هي ذلك «ترجمة ذاتية تُلاحق حياة شخصية أدبية ،وتندرج في فن ترجمة الحياة الأدبية ،وهي نوع يخص إنجاز حياة الكاتب عبر محكيات موضوعها كاتب ».

نلاحظ بأن موضوع السيرة الذاتية هو المؤلف نفسه يتحدث عن حياته وأعماله وشخصيته ؛لذلك تسمى السيرة الذاتية ،والسيرة الذاتية هي نوع من السير، وهذا «النوع الأدبي يتناول حياة إنسان ما تعريفًا يقصر أو يطول».

ومنه فالسيرة الذاتية هي كتابة أديب لتاريخ حياته بنفسه، وسرد جوانب منها في سيرته الشخصية، وذكر أعماله .

ب-أقسام السيرة الذاتية :

قسَّم الناقد إحسان عباس السيرة الذاتية إلى نوعين :

ب-1/ الصنف الإخباري المحض : يضم الحكايات ذات العنصر الشخصي سواء أكانت تسجل تجربة أو خبرًا أو مشاهدة ،كتلك الحكايات ، التي يقصها الجاحظ وأبو حيان الصلاح الصفدي وغيرهم، ومجموعة من السير الذاتية مثل: سيرة ابن سينا ».

تتناول السيرة الإخبارية الحكايات الشخصية، وظهر هذا النوع عند الجاحظ وأبي حيان التوحيدي والصلاح الصفدي وغيرهم، وهذا النوع هو الأكثر انتشارًا ،والهدف منه هو سرد الأخبار الشخصية في طابع السيرة.

ب-2/صنف يُكتب التفسير والتعليل والاعتراض والتبرير: ظهر هذا النوع عند ابن خلدون، والغاية من ذلك هي إنصاف الكاتب نفسه أمام التاريخ...ولم تكن الأحداث التي عاشها ابن خلدون أقل تشابكًا واضطرابًا».

دخل هذا الصنف في باب السيرة الذاتية، ومنه كتاب الاعتبار سرد التجارب الذاتية لأسامة بن منقذ .

ج- شرط السيرة الذاتية:

هناك شروط لتحقق نجاح كتابة السيرة الذاتية ،ومنها أن «السيرة الذاتية هي سرد الراوي المتكلم الذي يكون فيه الراوي هو الشخصية الرئيسية أو البطل ،أحد أشكال السرد متجانس الحكي (الراوي حاضر كشخصية في الحكاية) والذي يكون فيه الراوي أيضًا الشخصية الأولى ».

يجسد الراوي في السيرة الذاتية شخصية البطل ،وبالإضافة إلى ذلك «فالسيرة الذاتية ليست فنًا ميسورًا هينًا بل هي الفنون، التي تقتضي من كاتبها مشقة أن يتجرد من نفسه، ويتخلص من أهوائه ونزعاته الخاصة».

لكي يكون هناك سيرة ذاتية للأديب يجب أن يكون موضوعيًا في سرد أحداث سيرته، ويبتعد عن الهوى والتعصب وهذا الأمر صعب ؛لأن الكاتب هو موضوع النص ،وتجرده من الذاتية يتطلب منه جهدًا كبيرًا.

د–خصائص السيرة الذاتية:

ومن خصائص السيرة الذاتية نذكر أنه «تراوحت صيغ السرد بين التعبير المباشر عند ابن سينا والغزالي وابن خلدون، والإيماء والترميز والتلميح عند ابن طفيل، وهذه التنويعات الأسلوبية وحركات الانتباه، وتبادل صيغ التعبير وتعاقب الضمائر عُرفت جميعها في السيرة الذاتية العربية».

إن العديد من الأعلام كتبوا سيرهم الذاتية، وإن اختلفت طرق كتابتهم لها بين التعبير المباشر أو غير المباشر باعتماد الإيماء والرمز ؛ أي بين التصريح أو التلويح.

3–2/–السيرة الغيرية :

تعد السيرة الغيرية أحد أنواع السير التي ظهرت في الأدب العربي القديم ،وسنأتي على دراستها.

أ– مفهوم السيرة الغيرية :

تُعرف السيرة الغيرية على أنها « بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ (مميز) وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من خلال ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلفه».

إن السيرة الغيرية هي رواية لحياة علم من الأعلام، فتكون نبذة عن حياة شخصية متميزة، وتتناول أهم أعمالها وآثارها.

ب–نموذج من السيرة الغيرية للخطيب البغدادي:

كتب الخطيب البغدادي سيرة الصحابي سلمان الفارسي(ﷺ) ومامیّز هذه السيرة أنها أغفلت الجوانب العاطفية ولكنها لم تغفل الجوانب الذاتية الأخرى، ووُجدت فيها تمثيلات جديدة، وصوَّر رحلت النفس بين التجارب الفكرية والدينية».

إنَّ السيرة الغيرية هي ترجمة لحياة الآخرين، مثل ماقام به الخطيب البغدادي عندما كتب سيرة الصحابي سلمان الفارسي(ﷺ) فتعد سيرته غيرية اهتمت بحياته وشخصياته ورحلاته، وأهملت الجوانب العاطفية،ومع ذلك فهي تستحق الدراسة والمتابعة .

ج–الفرق بين السيرتين الذاتية والغيرية:

هناك فروق عديدة بين السيرتين الذاتية والغيرية ، ومنها نذكر مايلي :

* وجود الطابع الذاتي في السيرة الذاتية، والطابع الغيري في السيرة الغيرية
* السيرة الذاتية هي نقل مباشر للحقائق، وأما السيرة الغيرية ؛ فإنها نقل عن طريق الشواهد والشهادات
* موضوعية الكاتب في السيرة الغيرية ، وأما كاتب السيرة الذاتية فهو ذاتي
* كاتب السيرة الذاتية صاحبها وبطلها ،وأما السيرة الغيرية فكاتبها غير صاحبها ؛ أي هو مؤلف آخر».

نلاحظ الاختلاف بين السيرتين الذاتية والغيرية من حيث الموضوع المتناول وطريقة الصياغة الأدبية«ولسيرة الذاتية بهذا المفهوم تختلف عن السيرة الغيرية، فالأولى تعرض لحياة صاحبها فتعكس مشاعره وعواطفه ومواقفه من الحياة وأما الثانية فتعر لحياة غيرها من خلال الوقائع والذكريات واليوميات والمقالات والرسائل، لاذلك كانت السيرة الذاتية أوغل في الصدق؛ لأن مؤلفها صاحبها، وكلتا السيرتان

لاتنتميان إلى عالم الأدب إلا تحلتا بالأسلوب الأدبي».

ويمكن تلخيص أوجه الاختلاف بين السيرتين الذاتية والغيرية في الجدول الآتي :

أوجه الاختلاف من حيث:	السيرة الذاتية	السيرة الغيرية
الوقائع والأحداث	نقل مباشر للأحداث	نقل غير مباشر للأحداث
الموضوع	حياة الكاتب نفسه	حياة شخصية أخرى
الأسلوب	بروز ذاتية المؤلف	فيها موضوعية الكاتب
البطل	المؤلف نفسه	شخص آخر

تلك الفروق أكدت على وجود الحدود الفاصلة بين السيرتين الذاتية والغيرية من حيث المفهوم والمضمون والغرض.

3-3- السيرة الشعبية :

اتصفت السيرة الشعبية بسمة الشعبية بالنظر إلى شيوعها وكثرة تداولها بين عامة الناس .

أ- مفهومها :

ظهرت السيرة الشعبيةمنذ القديم،ويُقصد بالسيرة الشعبية « تمثل السير الشعبية لب مرويات العامة ،وهي في عمومها تشكلت في منأى عن الثقافة المتعالية التي تعني إجمالًا بأخبار الخاصة وشؤونها».

تناسب السيرة الشعبية ذوق عامة الناس، وهي موجهة لإمتاعهم ، وتشترك معظم السير الشعبية في خصائص محددة (منها البساطة)

ب - خصائص السير الشعبية :

إن من أبرز خصائص السيرة الشعبية نذر منها الصور الأدبية « استثمرت السير الشعبية الصور الخيالية المضخمة للأبطال العظام في التاريخ العربي الإسلامي بأسلوب ملحمي شامل ارتقى بها إلى رتبة عالية من البطولة الجماعية... ومجموعة أعمال روائية ذات سمات فنية متشابهة ، وأهداف متماثلة، وهي فن أدبي قريب من عامة الناس ».

نرى بأن السيرة الشعبية أنَّها لم تكتب لخاصة الناس ،كما أنها كُتبت بلغة العوام ، وحملت طابع السيرة التاريخية على الرغم من أنَّها لم تمت للتاريخ بصلة ،وإن لغة السيرة الشعبية هي ليست لغة أدبية وفنية مثلما نجدها في أسلوب السير الذاتية ، فقط نشير أن أسلوب السير الشعبية هو بسيط عادي مناسب لعامة الناس .

ج-أثر السيرة الشعبية :

أثرت السيرة الشعبية في الأدب العربي في عامة الناس على مر العصور « فأصبح لعنوان السيرة دلالات ملهمة في الوجدان إضافة إلى رمزيتها وشخصياتها الخرافية وسعت السيرة إلى انتزاع هموم الإنسان،فعمدت إلى استخدام الدعابة والمرح ، وركزت على جانب المفقود لدى الإنسان في كل عصر؛ لذلك تناولت جانب المجون والغنى الفاحش في العصر العباسي ، ويعد الرمز هدفًا للسيرة، وأسلوبًا لنقل جوهرها ، وتوسع تبعًا لتنوع الأشكال السيرية ، التي تنطوي تحت هذا النوع السردي».

إن السيرة الشعبية العربية هي عمل سردي لغايته الإمتاع، وامتازت بخصائص فنية محددة ،ومنها تشعب مواضيعه .

د-نماذج من السيرة الشعبية: نذكر من السيرة الشعبية مايلي:

د-1/ سيرة عنترة: تعد من الملاحم العالمية ،وهي كتاب جامع للمعرفة ،وسجل لمآثر العرب في الجاهلية.

د-2/سيرة سيف بن ذي يزن : عكست موقف الحبشة في الحرب الصليبية » .

د-3/السيرة الهلالية : وتسمى كذلك بسيرة بني هلال أو تغريبة بني هلال..وفي هذا الصدد قدّم د.سعيد يقطين قراءة جديدة للسيرة الهلالية ، وعرض فيها تقنيات، وتطرق لمختلف بناياتها ووظائفها ، التي تضمنت لاتساقها وكشف عن دلالاتها وأبعادها» .

تعد السيرة الهلالية من أشهر أنواع السير العربية، وأجاد الناقد سعيد يقطين في إعادة قراءته وتحليله لبينة السردية للسيرة الهلالية، وتتبع أبعادها ودلالاتها، ولقد شكلت السير الشعبية القديمة ملتقى الثقافات الإنسانية، فهي امتازت ببعدها الإنساني الضارب في عمق التاريخ الإنساني.

5- خصائص أدب السيرة :

تميَّز فن السير بخصائص تميزه عن الأجناس الأدبية العربية القديمة، ومن جملة سمات السيرة أنها « تعنى السيرة الموضوعية لشخصية استأثرت باهتمام الناس عامة ،وأصبحت مآثرها معروفة ،وأخبارها معلومة، فتأتي سيرتها لوضع كل ذلك في إطار واحد يحول دون ضياعه ،وتحرص السيرة الموضوعية على وصف المركز الاعتباري، الذي بلغته الشخصية، ولكنها تضفي عليها أوصافًا تمجيدية ،بعضها من بقايا المرويات الاخبارية التخيلية المفخمة».

نؤكد على أن أسلوب السيرة هو بسيط في مستوى متوسط يناسب فهم عامة الناس ؛ لكون السيرة عمل سردي موجه لعامة الناس، ومع وجود بعض الاستثناء في بعض السير ،التي جمعت بين أناقة الأسلوب ، وبعض العبارات العامية مع الاحتفاظ بجودة اللغة العربية وسلامتها مثل السيرة الهلالية.

ثانيًا- أدب التراجم في التراث العربي :

دخل أدب التراجم في مجال السير، وبذلك نشأت علاقة وثيقة بين الترجمة والسيرة .

1- مفهوم الترجمة: تعد الترجمة أدبًا توثيقيًا استيعاديًا تجري فيه بناء عملية الصورة الشخصية استنادًا إلى سلسلة متضاربة من المرويات».

إنَّ الترجمة هي إعادة كتابة حياة علم استنادًا إلى ماروي عنه، والترجمة هي عمل فني سردي قد يتناول حياة أديب علم أو مجموعة أعلام (أدباء، نقاد، متصوفة ،فلاسفة) ويتوسع فيه المترجم .

2-أنواع التراجم:

ظهرت الأشكال الأولى للترجمة في تراجم الصحابة« كترجمة سيرة الصحابي أبي بكر الصديق(ﷺ) للواقدي (أبو عبد الله محمد) وابن الأثير لديه كتاب"في أسود الغابة في معرفة الصحابة والعلماء كترجمة الذهبي للقراء، وتراجم الأدباء لابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء"، وابن المعتز في طبقات الشعراء...الخ».

ظهرت في التاريخ الأدبي تراجم كثيرة للأدباء وفقهاء، ولكن بداياتها كانت مع تراجم الصحابة رضي الله عنهم.

3-أسلوب التراجم وخصائصها :

ومن خصائص أسلوب الترجمة أنه «يشحن أسلوب التعبير الكتابة أحيانًا بسمات أدبية (ظهرت عند ابن قتيبة) على أن البذور السيرية الأولى في التراجم تتأرجح بين التوثيق والتعبير (بين مجال التاريخ أو الأدب) وقد يحول الهدف التعريفي دون الارتفاع إلى مستوى التخيلي إلى درجته التمثيلية الأدبية».

اتبعت الترجمة سمات فنية في التعريف بالمترجم له (اسمه،كتبه، إنتاجه) ،ومنها الأسلوب الفني الجميل،وظهور الطابع الجمالي فيها.

4-الفرق بين السيرة والترجمة: ومن الفروق بين السيرة والترجمة نذكر:

أ- يكمن الفرق بين السيرة والترجمة في أن السيرة تحيل على المرويات والمدونات التي عُنيت بشخص الرسول محمد (ﷺ) وكانت الترجمة تُحيل على خلاصات موجزة للتعريف بأعلام الحديث والفقه والأدب...الخ .

ب- ظهرت الترجمة بعد السيرة في تراثنا العربي».

ارتبطت السيرة بتدوين أخبار الرسول (ﷺ) وتكون طويلة، وأما الترجمة فارتبطت بأعلام على اختلاف تخصصاتهم، وتكون موجزة

ومنه إذن نخلص إلى القول بتعدد أشكال فن السير في السرد العربي القديم ،وظهرت السيرة النبوية لابن هشام كنص مؤسس للأدب السير ، وعمومًا أدب السير هو موجه للقارئ الخاص باستثناء السيرة الشعبية الموجهة لعامة الناس، ومازال فن التراجم والسير يمارس حضوره في ساحة تطور الأدب العربي الحديث .